تقديم

بقلم الأستاذ

عباس محمود العقاد

من قديم الزمان، كان تقديس الحياة الأخرى - أو تقديس غروب الروح في العالم الآخر - أدبًا مأثورًا عن المصريين الأولين، ومن بواكير عصر التاريخ، كان كبير آلهتهم «أوزوريس» موكلًا بالشمس الغاربة والشموس الغاربين، ومن هذه الشموس نيران آدمية كانت تنير، وطلعات كانت تطلع، وقلوب كانت تشع في حرارتها وميض الحياة.

لقد كان جميلًا بأولئك الأولين أن يستقبلوا الشمس الغاربة، فما في استقبال الشموس الطالعة من نخوة نادرة في طبائع الأحياء، وكان جميلًا منهم أن يزدان شاطئهم الغربي بأعظم الهياكل، وأخلد الآثار، فحسب المطلع الشرقي من زينته أنه قبلة الناظرين، وأنه غني عن استقبال الذاكرين.

يقول كونفشيوس حكيم الصين: «معاملتنا الموتى كأنهم موتى، ولا شيء غير ذلك، فقدان للعطف والوفاء، ومعاملتنا الموتى كأنهم أحياء ولا شيء غير ذلك، فقدان للعقل والحس.. فلا هذا ولا ذاك، ولكنه قوام بين الأمرين».

أبناء الشرق جميعًا - على ما ظهر لنا - عارفون بحق الغروب في العالم الآخر، عارفون بحق الغاربين.. فهم لا ينسون كأنهم ميتون ولا شيء، وهم لا ينافسونهم كأنهم أحياء ولا شيء، ولكنهم يذكرون ويعفونهم من صراع المنافسة بين الأحياء وعلى هذه السنَّة درجت حضارة الشرق البعيد، وعليها في هذه الرقعة من الأرض درجت حضارة وادي النيل.

نعم.. وعلى هذه السنَّة، جرى زميلنا الأديب المؤرخ «طاهر الطناحي» في كتابه

obeikan.com

«الساعات الأخيرة» أو «ساعات الغروب»، فهو من سطره الأول إلى سطره الأخير وفاء للشموس الغاربة، وذكرى للأيام الذاهبة، وهو في لبابه شريعة مصرية يباركها الأولون والآخرون. ولو لم يكن فيه إلا أنه جزاء كريم لمن كف الموت أيديهم عن الجزاء، لكان جديرًا من الأحياء بالجزاء الحسن والثناء الجميل.

في هذه الصفحات، صفحات أخيرة من كل سيرة.. وفي هذه السير شيء عن العباقرة والأئمة والزعماء.. وكلُهم شموس سطعوا في سماء الحياة، وكان منهم النور والدفء، والهداية والرعاية، والقوة والنهضة والرشاد والسداد.

وقد بدأ الكتاب بفصل من الطبقة العالية متسائلًا: «لماذا نخاف الموت؟» وكان من الحق أن يسأل هذا السؤال، إذا كان الموت كله طريقًا للخلود، وبابًا يطرقه أولئك الخالدون.

لماذا نخاف الموت؟.. سؤال قد أجاب عنه أناس ميتون، وإن لم يكونوا ميتين، يوم تركوا لنا جوابهم المحفوظ في سجل الخالدين.

يقول الشاعر سفوكليس:

- ليس الموت أسوأ شرور الحياة، فشرٌ من الموت أن نتمناه ولا نلقاه!

ويقول الخطيب شيشرون:

- لا أريد أن أموت.. ولكني لا أبالي أن أموت.

ويقول الفيلسوف طاليس:

- لا فرق بين الحياة والموت!..

فقيل له:

- ولماذا تحيا؟

فقال: «لأنه لا فرق بين الموت والحياة..!».

وغير هؤلاء قالوا غير هذا المقال، فشاعرنا أبو الطيب يقول:

وإذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ حياة، وإنما الضعف ملَّا

ولكنه يقول أيضًا:

ألف هذا الهواء أوقع في الأنفس أن الحمام مر المذاق

والأســى قبل فرقة الــروح عجز   والأســى لا يكون بعد الفراق

والضرير البصير شاعر اليونان الكبير، يقول على لسان بطل من أبطاله: «لخير لي أن أعيش عبدًا لأفقر الفقراء، من أن أموت ملكًا على أشباح الظلماء».. ولكنه عاش ليصوغ آيات الثناء لمن آثروا ميتة الأبطال على عيشة الجبناء!.

أما الذي نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقف الصراع بين الغريزة والضمير، فإن الخضوع له في هذه الحالة ضعف، والضعف شر من الموت.

***

والأستاذ طاهر الطناحي يروي عن الفيلسوف الفرنسي شارل رينوفييه تعليله لخوف الموت حيث يقول: «إن الإنسان عندما يكون شيخًا، وقد اعتاد الحياة، يصعب عليه كثيرًا أن يموت، وأن الشبان كما يرى أكثر خضوعًا للموت من الشيوخ».. كأنه يريد أن يقول أن الشبان لم تطل بهم عادة الحياة فلم يألفوها كما ألفها الشيوخ، ولو طالت بهم لخافوا فراقها، وخذلتهم الشجاعة عند شعورهم بالخطر عليها.

أما الواقع كما نراه، فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف، والخوف أقرب إلى طبيعة الضعفاء.. ولا فرق في هذه الخلة بين الشيخ والفتى إذا تشابها في الضعف أو تشابها في قلة الثقة بالحياة.

فالمحنة كلها إنما هي محنة الضعف أمام الموت، ولا فرق بين الضعف أمام الموت والضعف أمام الحياة، فإن الحي الضعيف يهاب في حياته أمورًا كثيرة قبل أن يهاب الموت الذي يسلبه تلك الحياة.

وأسلوب القرآن الحكيم خير الأساليب في التعريف بموضع المذمة من حب الحياة أو كراهة الموت.. فلا ملامة في أن يحرص الإنسان على الحياة، فلا يلقي بيديه إلى التهلكة.. وإنما الملامة أن يكون «أحرص الناس على حياة».. أي حياة وكل حياة، وبغير تفرقة بين أرفع حياة وأسفل حياة!.

ولكن لا ملامة على الإطلاق في حب الحياة كما نريدها، وبالشروط التي نرضاها، فتلك هي القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء..

ولست أحسب أن أحدًا يهوّن على النفوس حب وجوده إلا وهو مغالط في كلامه، إذا كان الوجود قد انقاد له بما نرتضيه نحن من شروطه ومحاسنه، ولست أذكر أن قلما جرى في تهوين خوف الموت بأبلغ من كلام الأديب الكبير، وليام هازليت حيث يقول: «لعل العلاج الأمثل لخوف الموت أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية، وإنه كان بالأمس زمن لم نكن فيه.. فلماذا يشغلنا إذن أن يجيء زمن لا نكون فيه؟».

إلى أن يقول: «ما أجد في نفسي رغبة أنني كنت حيًا على عهد الملكة آن قبل مائة سنة، فما بالي أهتم بأن أكون حيًا بعد مائة سنة في عهد من لا أدري ما اسمه من الملوك أو الملكات؟».

فهذا كلام بليغ في الأسلوب الخطابي الذي يقوم على التزويق، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب، فإن الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده لأنني لم أكن موجودًا فيه، وبين مستقبل سأفقده لأنني وجدت في الحاضر، ثم انقطع بي الوجود قبل الوصول إليه.. فليس في هذه البلاغة إقناع، بل فيها تلطيف للواقع ومحاولة للعزاء حيث تحتاج إلى العزاء.

غير أننا لا نحتاج إلى المغالطة، ولا البلاغة الخطابية، حين نفرق بين الحياة وبين كل حياة وأي حياة.. فمن يقبل الحياة بشروطه لا حاجة به إلى مقنع يقنعه بأن الموت خير من الحياة التي تنعدم فيها هذه الشروط.. ومن يقبل كل حياة، ويحرص على أن حياة لن تجديه بلاغة، ولن تجوز عليه مغالطة في خوفه من الموت، كيفما كان، وفي تشبثه بالحياة كيفما تكون.

ولعلي أنصف الحياة نفسها، إذا قلت إن خوف الموت ذو فضل عظيم على الأحياء، وإنه كما قال أبو العلاء:

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله ... وعلم نوحًا وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم ... وقد وعدا من بعده جنتي عدن

فلا ضير أن نتقي الموت فنحيا كما ينبغي أن نحيا، وإنما الضير أن تغلبنا هذه التقية فنحيا كما لا تنبغي حياة.

***

وقد اشتمل كتاب «الساعات الأخيرة» لمؤلفه الأديب المؤرخ الأستاذ طاهر الطناحي

على عشرين سيرة.. ليس منها ما هو أشد اختلافًا في النشأة والتربية والمذهب والثقافة والخصال الشخصية من السيد توفيق البكري، والآنسة مي زيادة رحمهما الله، ولكنهما مع هذا هما الوحيدان اللذان انتهت حياتهما بمأساة نفسية أو عقلية واحدة، ووقفت فيما أعتقد على السبب المباشر لهذه المأساة.

أصيب كلاهما في أخريات أيامه بوسواس الاضطهاد، ونزل كلاهما زمنًا بمستشفى العصفورية في لبنان، وبدأت المأساة عندهما بصدمة مزعجة سبقتها صدمات، ثم استحكمت جميعها حتى استعصى فيها العلاج.

❋❋❋

أذكر أيام اشتغالي بتحرير صحيفة «الدستور» حوالي سنة 1908 أن السيد توفيق البكري ذهب إلى ميدان القلعة في الاحتفال بالمحمل، ولم يخرج أتباعه من أصحاب الطرق الصوفية للاشتراك في ذلك الاحتفال.. وكانت بينه وبين الخديو عباس الثاني جفوة شديدة في ذلك الحين، فاعتقد الخديو أن السيد تعمد منع الطرق الصوفية في ذلك اليوم إخلالًا بتقاليد الموكب التي جرى العمل عليها مئات السنين، وسأله في غضب: «لم لا أرى هنا مواكب الطرق الصوفية؟» فقال السيد ما معناه أنه منعها لأنه قد حان الأوان للتخلص من هذه البدع.. فانتهره الخديو وخاطبه بكلمة قاسية، ردها السيد بما هو أقسى منها على مسمع من جميع الحاضرين.. وترك المكان غير مستأذن، وهو يردد كلمته في شيء كثير من الاضطراب.

أذكر بعد ذلك أن صحيفة «الدستور» كتبت تؤيد السيد في موقفه من بدعة الإشارات والمواكب، فأرسل السيد مبلغًا من المال باسم الاشتراك في الصحيفة، ولكنه أكثر من قيمة الاشتراك فيها، فأبى العالم الفاضل المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي صاحب «الدستور» أن يقبله، وأعاده إلى السيد بعد خصم القيمة السنوية المكتوبة في رأس الصحيفة. وشاع في السنوات التالية أن السيد - رحمه الله - قد ساوره الوسواس، وأخذ يسأل كل من يلقاه عما يراد به ويدبر له في الخفاء.. ثم تفاقم الداء حتى غطى على تلك الألمعية النيرة، فقضت بدائها الأليم بعد عشرين سنة ونيف!

❋❋❋

تلك مأساة السيد توفيق.. أما مأساة الآنسة مي، فقد بدأت قبيل سنة 1930، ولم تزل كامنة تتفاقم في الخفاء حتى ظهرت بعد ذلك بسنوات.

obeikan.com

أذكر أنها عادت من إيطاليا في صيف إحدى السنين، وذهبت أسلم عليها بعد عودتها، فجرى الحديث عن موسوليني وهي تعلم رأيي فيه، ورأيي في جميع الحاكمين بأمرهم.. فقالت لي في اضطراب ظاهر: «لقد أضجرونا بأحاديثهم عن الدولة الرومانية ومجد الدولة الرومانية، وتجديد الدولة الرومانية.. أليست دولتهم الرومانية هذه هي التي طاردت السيد المسيح، وأسلمته إلى أعدائه؟.. لقد قلت لهم هذا في عاصمة الدولة الرومانية.. نعم قلته لهم وليكن ما يكون».

قلت: «وماذا عسى أن يكون؟.. لا شيء!».

نعم لا شيء كان ينبغي أن يكون من جراء هذا الحديث، ولكنه قد كانت منه أشياء بعد ذلك لأنه اقترن بالحالات التي تتفاقم من جرائها أمثال هذه الصدمات، فلم نلبث فترة من الزمن حتى سمعنا الآنسة تعيده متوجسة مضطربة، وتسألنا: ألم نعلم أن الدوتشي يتعقبها ويريد أن ينتزعها حية أو ميتة؟.. أليس صحيحًا أنهم قرروا في إيطاليا إجراء بعض التجارب العقلية والجسدية للاستعانة بها في أعمال التعذيب والإكراه على الاعتراف، وأنها هي إحدى الفرائس التي يقصدونها بالتجربة على التخصيص.

❊❊❊

حادثان مشابهان قد انتهيا بنتيجة واحدة، ولكن كل حادث منهما يقع في كل يوم لمئات من الناس، ولا ينتهي بمثل تلك النهاية، ولا بما يقاربها.. فمثل هذا الحادث لن يكون وحده سببًا لوسواس الاضطهاد، ولا سببًا لاستعصاء ذلك الداء الأليم، وإنما يكون الحادث سببًا مباشرًا لإظهار أعراضه الكامنة وتفاقم شرورها وعقابيلها، إذا أحاطت به صدمات نفسية متعددة. ولاسيما إذا تجمعت تلك الصدمات في السن التي يسميها الآباء بسن الحرج، ويسميها الفقهاء بسن اليأس في بعض الأحيان climactric هذه السن تبدأ عند المرأة في نحو الخامسة والأربعين، وتتأخر قليلًا عند الرجال فلا تبدأ عند الكثيرين منهم قبل الستين، وقد تبكر فتبدأ في الأربعين.

وهذه السن، في أحد جوانبها، هي انقضاء وظيفة مهمة من وظائف البنية الحية، ولكنها من الجانب الآخر مرحلة جديدة في الحياة الإنسانية يصحبها أحيانًا صفاء في العقل، وسكينة في النفس، وقدرة خالصة على فهم الحياة بمعزل عن الأهواء.

والمعول في التفرقة بين الطورين، على الحالة التي تصاحب سن الحرج.. فإن

obeikan.com

أدركت إنسانًا وهو عامر النفس بالعطف والحنان، مملوء الذهن بالشواغل التي توافقه وترضيه، فذلك خير وراحة، وإن هي أدركته وهو منقطع عن العطف، معرض للقلق، مستسلم للهواجس.. فذلك هو الخطر الذي تخاف عقباه.

***

في حالة السيد توفيق جاءته الصدمة في إبان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس.. جاوز الثلاثين منهوك الأعصاب مهدود البنية، وألقاه مركزه الاجتماعي بمعترك الأزمات السياسية بين مصر ولندن والآستانة، وحدث أن زائرًا من أصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة في باب من الغزل المحظور، ووصلت هذه القصيدة إلى المعتمد البريطاني فأغلق أمامه الأبواب في قصر الدوبارة، كما أغلق الخديو دونه أبواب عابدين.. وسبق إلى ظنه أنه مهدد في منصبه وسمعته، بغير اطمئنان إلى الحماية من أحد، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الأمير، خالطه الخوف من كل جانب، وتوهم أنه مقتول أو مسموم أو مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة، ثم انقلبت أزمة السن أو أزمة الحرج إلى داء عضال!

***

أما الآنسة مي، فقد لحق بها خوف الاضطهاد، وهي معرضة له مستهدفة لوسواسه وأوهامه منذ زمن ليس بالقصير.. وكانت قد بقيت وحيدة في معيشتها بعد فقد أبيها ثم فقد أمها، وبعد خيبة رجاء في الحياة البيتية لم تكن تبديها، ولم تكن مع ذلك قادرة على إهمالها، وأطبقت النكبات عليها، وهي في هذه العزلة، بادعاء المدَّعين وطمع المتقاضين.. فجاء إليها بعضهم - كما قال الأستاذ طاهر الطناحي - يطالبها بثلثمائة جنيه، لأن أرضه مرهونة، فلما طلبت أن تطلع على وثيقة الرهن أطلعوها وضيقوا عليها في الطلب، وهي في شكواها وضيقتها لا تصرح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام.

ومن بلاء هذا الداء - داء الاضطهاد - أن الإقناع فيه متعذر أو مستحيل، فإذا حاولت أن تنزعه من صاحبه سرى الشك إليه في إخلاصك واتهمك بأنك من المؤتمرين به والعاملين على إنقاذ الدسيسة فيه وإجازة الغفلة عليه، وقد وقعت في هذا الخطأ مرة، وأنا أحسب أن الأمر أوضح من أن يقبل اللبس والخفاء، فزرت الآنسة «مي» ورأيتها ترتجف وهي تفتح الباب، وتشير إلى المسكن الذي أمامها وتضع أصبعها على

فمها تحذرني من الظلام. قالت: «ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النور؟ أنها خالية خاوية فلماذا ينيرونها في هذه الساعة؟..» فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملًا وجدته عند بابها، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي، وهو أول الشهر وأول تاريخ الإيجار.. فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أنني أخفي عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين..!

ووقع مثل هذا الخطأ مع السيد البكري بدار الكتب المصرية، فرأيت الشاعر أحمد نسيم يكلم السيد، والسيد يتلفت حواليه، قال السيد: «إن الخديو يأتمر بي، ويلاحقني إلى هنا، ويرصد لي هذا وذاك» وأشار إلى بعض الجالسين في حجرة المطالعة.. فقال نسيم: «إن أيام الخديو عباس قد انتهت، فلا خوف منه عليك».

فانتفض فزعًا وهو يتراجع ولا يرفع نظره عن محدثه، وقال لي نسيم أنه كان يلقاه بعد ذلك فيدير عنه بصره ولا يسلم عليه..

رأسان لامعان، سرى منهما النور، وسرت إليهما النار.. واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء، وقد سلما من الاضطهاد حقًا، ولم يسلما منه ظنًا ووهمًا.. كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق أو بالباطل لكل عقل منير.

obeikan.com

نظرات في الحياة والموت

الموت جانب من الحياة الدنيا.. والحياة جديرة بأن تعرف بخيرها وشرها، بنورها وظلامها، بهنائها وآلامها.

والخير والشر نسبيان، كما أن نور الحياة وظلامها في الحقيقة متشابهان. وليس الهانئ الطروب، بأسعد من المتألم المكروب، ولا الخليُّ الباسم، بأكثر حظًا من الشجي المتشائم، وقد جئنا من العدم، وسنعود إليه، وخرجنا من الأموات، وسندخل طائعين أو كارهين إلى قبورهم.

والقبر ماثل بين حياتين: حياة مادية، ندعوها الحياة الأولى، وحياة معنوية، أو روحية، ندعوها الحياة الأخرى. وهي حياة طالما اشتهاها الكثيرون أما رغبة في ثواب، أو خلاصًا من عذاب. ولعل الموت في عبوسه أجمل حالًا من الحياة في ابتسامها، وأخف هولًا من الأيام في أشجانها:

ما أعدل الموت من آت وأستره ... فهيجيني، فإني غير مهتاج
العيش أفقر منها كل ذات غنى ... والموت أغنى بحق كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت ... بابا من الشر لا قاه بارتاج

وفي ظلام الموت ما يبعث على اجتلاء الغوامض، وفي عبوسه ما يحفز إلى اكتناه الحقائق، وفي آلامه ما يهذب النفس، ويروض القلب على احتمال أعباء الحياة. وقديمًا كان للموت مكان من التقديس عند الفراعنة، ينظرون إليه كغاية لهذه الحياة، وبداءة لحياة جديدة، فرمزوا إليه برموز عدة سميت آلهة، كان أكبرها الإله «أزوريس» إله الموتى.

والموت يطهر الحياة، كما ينقل الأطهار إلى حياة أرقى، وهو في جلاله الرهيب، ووقاره المهيب، وسلطانه الشامل، يتجلى في أروع مظاهره، وأبلغ عظاته، حين يضرب أطنابه على فراش عاهل عظيم، أو مفكر جليل.

هناك ترى من روعة الموقف، ما تقترن فيه عظمة الموت بعظمة الميت. ومن رهبة المأساة، ما يمتزج فيه جلال المصيبة بجلال المصاب. فتشعر النفوس بأكبر

obeikan.com

وجود للفقيد، وترى من شخصيته في مماته، ما حجب عنها أيام حياته، وتفهم من معنى خلوده، ما لا تفهمه أثناء وجوده، وكأنما الموت قد خلع عليه حياة جديدة هي خير وأبقى من هذه الحياة الأولى، قال برناردشو: «الحياة تسوِّي بين الناس، والموت يبرز فضل الفضلاء».

ونحن الأحياء نعيش في فضل الموتى من الزعماء والأدباء والعلماء فقد بنوا لنا الحياة، ومهدوا سبلها، وأقاموا لنا صروحها، وملأوها نورًا من سماء عقولهم، ونشروا في أردانها عطرًا من زهرات نفوسهم، وجملوا وجهها بجمال فنونهم، وكانوا في الحياة أحياء بجهادهم، وفي الموت أحياء بآثارهم.. فحق علينا أن نمجدهم في قبورهم، ونذكرهم في مآسيهم، ونتخذ من قصص مماتهم عبرة الأجيال للأجيال.

وإذا كانت النفس الإنسانية مجبولة على حب التحول من حال إلى حال. تواقة إلى التنقل من لون إلى لون، فإنها لتجد في الحديث عن الموت بعدما سئمت حديث الحياة، رياضة ذهنية، ولذة روحية، وإيمانًا بالتضحية في سبيل المثل الأعلى، ما دام هذا الحديث هو نهاية كل حي.

• فكرة الموت:

هذا، وقد فكر الإنسان في الموت - ولعله الحيوان الوحيد الذي فكر في نهاية الحياة - لأنه وهب فكرًا، والفكر مخلوق متحرك لا يقف عند حد. ولأنه بما جبل عليه من حب الحياة، وحرصه عليها، وغرامه بها، لا يستطيع أن يتصور لنفسه وجودًا موقوتًا، لا وجود بعده، فهو يفكر ويبحث، ويريد استكمال هذا الوجود بعد تلك النهاية المحتومة، ولو كان الوجود الآخر بالذكر الخالد، أو بالولد النابه، أو بالروح في حياة ثانية ليست كالحياة التي نحياها. ويستوي في ذلك المؤمنون والملحدون.

وكان الإنسان القديم يعتبر الموت نهاية الحياة، وخاتمة فصلها الأليم. وكانت الأديان القديمة كالبوذية في شكلها الأول، لا تعني بما بعد الموت، وكانت القبائل البدائية تعتقد أن الموت الطبيعي لا يحدث إلا بالسحر، أو بالشيطان، وكان المرض في اعتقادهم شيطانًا يعتري الجسم، ويريد أن يفتك به، فيستعينون في علاجه وإخراجه بالتعاويذ، وما تزال بعض قبائل غرب إفريقيا إلى الآن تعتقد أن الموت «جريمة» ارتكبها بالسحر شرير من أعداء الميت، ولهذا يضعون الميت أثر موته فوق أغصان الشجر، ويحمله أربعة رجال، يقفون، ثم يأتي رئيس القبيلة، فيسأل الميت قائلًا:

- هل كان موتك بالسحر؟

فإذا ظل الرجال الأربعة ثابتين في أماكنهم، كان معنى ذلك أن الميت يجيب بالنفي.. أما إن تحركوا، فإن هذه الحركة تدل على أن الميت يتألم ويشكو لأنه مات بالسحر. على أنهم في بعض الأحيان يعتقدون أن الميت هو الذي ارتكب جريمة الموت إذا كان ساحرًا، لأن عمله ينقلب عليه.

وبعض العامة في بلادنا يخشون على أطفالهم وأقاربهم من الموت «بالعين» وينسبون إليها كثيرًا من حوادث الموت، وتأثير العين عندهم، كتأثير السحر عند تلك القبائل.

• سيد الحياة:

ولم يفكر قدماء المصريين قبل عهد الأسرات فيما بعد الموت، وكان اعتقادهم في الموت، لا يختلف عن اعتقاد الأمم البدائية من أنه نهاية كل حي. ونصيب الإنسان في هذه النهاية كنصيب النبات، يذوي ويموت، ثم يندثر ويتحلل إلى العناصر الأولى، ولما ارتقت حضارتهم، وتقدمت حياتهم العقلية صاروا يعتقدون أنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن ظلام بشرى، إلى نور إلهي، حتى أطلقوا على تابوت الموتى اسم «نبعنخ» ومعناه «سيد الحياة»، وأطلقوا على القبر «حت نت نحح» أي «قصر الأبدية»، وعلى الميت اسم «أوجا أن عنخ» أي «الذاهب إلى الحياة»، وكذا «حتب أم عنخ» أي «المستريح في الحياة».

والإنسان عندهم يتكون من شيئين «خعت» وهو الجسم، و«با» وهو الروح، ولكل إنسان قرين يدعى «كا» يتشكل بشكل الجسم، ويبقى حيًا مع الميت في قبره، ومن أجله وضعوا في القبر الأطعمة التي كان يهواها في حياته، والأدوات التي يستعملها، ظانين أنه متى ترك وحيدًا اعتراه الجوع والظمأ، وهاجمته وحوش مخيفة تهدده بموت آخر.. فإذا تليت الدعوات، وأقيمت الصلوات على الميت، نال بسببها الطعام والشراب والأدوات، ودفعت عنه الآلهة هذه الوحوش.

• بقاء الروح:

ثم ارتقت فكرتهم عن الحياة الأخرى، فأصبحوا يعتقدون أن أعمال الإنسان في حياته الأولى هي التي تضمن له السعادة، أو تؤدي به إلى الشقاء بعد الموت. وهذه

الأعمال تعرض على مجلس مؤلف من 42 قاضيًا يرأسهم الإله «أزوريس» إله الموتى، وهناك ميزان توزن به أعمال الميت، فمن رجحت موازينه نجا وفاز بالسعادة الباقية، ومن خفت موازينه لقى العذاب الأليم، وقد اعتقدوا أن جوارح الإنسان في الآخرة تشهد عليه - وجاء ذلك فيما بعد في الدين الإسلامي - قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:24].

ومن دعوات قدماء المصريين الدينية المأثورة: «يا قلبي.. يا قلبي الذي يأتي من أمي.. قلبي الذي كنت به في الأرض، لا تكن شاهدًا علي، ولا تختصمني، لأنك رئيس قدسي.. ولا تتهمني بشيء أمام المعبود الكبير».

وقد قال ماسبرو - ونقل عنه المرحوم أحمد كمال باشا-: إن أغلب المصريين القدماء كانت لهم معرفة قليلة بما يؤول إليه «كا» بعد الموت. ومبلغ علمهم في أمره أنه متى دخل القبر استقر وعاش فيه، ولا يفارقه إلا طلبًا للزاد والقوت.. فإذا خرج من جدثه، هامَ في القرى، وألقى بنفسه على المآكل، وحسد الأحياء، وتعمد الانتقام منهم بسبب اعتزالهم له، فيأخذ في إزعاجهم، وإصابتهم بالأمراض، وقد يضر بعض الناس بلا سبب إذا كان رديئًا، فتحمله رداءته على إيذائهم، حتى ذوى القربى.

واستدل على ذلك بما قيل عن كاتب مصري يدعى «كيبي» كانت زوجته «عنخاري» تأتيه بعد موتها كل ليلة، ويظهر شبحها له في شكل مخيف، فيتفنن في تعذيبه، مع أنه كان بارًا بها في حياتها، وفيًا لها بعد مماتها، فأقام لها مأتمًا عظيمًا، وأوقف للصدقة عليها عقارًا كبيرًا. فلما استمرت في تعذيبه عدة أشهر كتب لها رسالة قال فيها:

«منذ تزوجتك لم أسئ إليك، ولم أفعل منكرًا يغضبك.. فما جوابك إذا وقفنا أمام (أزوريس) وقضاة الآخرة، وقضوا عليك بالعقاب، ثم ماذا يكون اعتذارك؟».

وأمضى الرسالة، وعلقها فوق تمثال من الخشب، فخافت الزوجة «الكا» سوء العاقبة. و«كا» عندهم من الأرواح مثل «با»، وهناك روح ثالث يدعى «خو» أي المنير، فللإنسان في اعتقادهم ثلاثة أرواح.

***

وسواء أكانت الروح واحدة، أو متعددة، فإن القصة السابقة من الحوادث الواقعية

التي تؤيد ما يذهب إليه علماء «الاسبرتزم» أي المباحث الروحية في العصر الحديث مثل: كاميل فلامريون، وأولفرلودج، ووليم كروكس، وغيرهم ممن يعنون بالتجارب الروحية، لإثبات أن للإنسان حياة أخرى، وإن روحه باقية بعد موته، ويمكن الاتصال بها، وإن هذا الموت الذي يعتري الجسم ليس فناء نهائيًا، بل هو انتقال من عالم مادي إلى عالم روحي خالد.

وقد كانت فكرة البعث والجنة والنار موجودة عند قدماء المصريين، قبل الأديان الحديثة بآلاف السنين، وكذلك الحساب، والميزان الذي توزن به الأعمال لتقرير المصير، فإما إلى النعيم، وإما إلى الجحيم، وفي بعض النقوش والرسوم التي وجدت على الأحجار، أو في الأوراق البردية رمز الجنة والنار، فترى الأطعمة موضوعة في مجلس «أزوريس» إشارة إلى الجنة، والأسد رابضًا متحفزًا إشارة إلى النار.

والجنة عندهم قائمة في مكان خصيب يانع الثمر، يبلغ ارتفاع القمح فيه سبعة أذرع، وطول السنبلة وحدها فيه ذراعان، ولا شاغل لسكان الجنة سوى التمتع باللذات.

❊❊❊

وقد جاءت الأديان الحديثة بتأييد الحياة بعد الموت.. بل من القواعد الرئيسية في الإسلام، الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتحدثت الكتب المقدسة عن الروح، ووصفت الحياة الأخرى وما يجري فيها، وما سوف يناله الصالحون من جنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت.. وما يلاقيه المجرمون من نار ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:6].

وقد شايع الفلاسفة العقليون الأديان الحديثة في ثبوت الحياة بعد الموت. أما الفلاسفة الماديون، فيعتقدون أنه لا فرق بين النبات والإنسان في العدم، ويستدلون بالخوف الطبيعي من الموت، على الفناء النهائي الذي يلحق الإنسان بموته دون أن تتلوه حياة أخرى، ويقولون إنه إذا كان هناك حياة أخرى لما جزع الإنسان من الموت هذا الجزع العظيم:

يهال التراب على من ثوى | فآه من النبأ الهائل

لكن الفلاسفة العقليين يردُّون على ذلك بأن الخوف من الموت ناشئ عما جبل عليه الإنسان من حب الخلود.

وهذا الحب الذي يشعر به على الدوام، يدل على شعوره الخفي بأن هناك وجودًا دائمًا قدره الخالق للروح، وإلا لما أحس الإنسان هذه الرغبة الشديدة في الحياة، وهذا الشوق القوي إلى البقاء، أما تعلقه بالحياة الأولى فهو لعمران الأرض، ولفائدة المجتمع، ثم لأنه يجهل الموت، أو يخاف ألمه، ويستوي في هذا الإحساس الطبيعي العالم والجاهل، والكبير والصغير، والصالح والطالح.

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله   وكلف نوحًا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم   وقد وعدا من بعده جنتي عدن

لماذا نخاف الموت

«ليت عندي من القوة ما يمكنني من تحريك القلم، حتى أشرح سهولة الموت ولذته..!».

ذلك ما قاله العالم الإنجليزي الكبير «وليم هنتر» وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير، ويبدو للقارئ - لأول وهلة - أن هذا العالم لا يعني الواقع، وأنه يريد باللذة ما يشعر به من الخلاص من أعباء الحياة الثقيلة، أما الجسد، فإنه يتألم بخروج الروح، ويتعذب بسكرات الموت، لأن الإنسان قد فُطِر على الخوف من الموت، وتخيله شبحًا هائلًا مروعًا، يقبل في ظلام، وينزل بالأهوال والآلام، فيجفل من ذكره، ويشعر في أعماق نفسه بكرهه، ويلتمس النجاة منه إلى الأبد لو استطاع إلى ذلك سبيلًا.

والخوف من الموت عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب، لأن الشيخ اعتاد الحياة، ومن اعتاد شيئًا ألفه، وإن كان فيه ما يؤلمه.

وإذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ   حياة وإنما الضعف ملَّا

وقد قال الفيلسوف الفرنسي «شارل رينوفييه» قبيل موته بأيام، وكان قد بلغ الثامنة والثمانين:

«عندما يكون الإنسان شيخًا، وقد اعتاد الحياة، يصعب عليه كثيرًا أن يموت، وأرى أن الشبان أكثر خضوعًا للموت من الشيوخ، فإنه حينما يجوز الإنسان الثمانين يصبح جبانًا، ويكره أن يموت، ومتى تحقق دنو أجله تحزن نفسه وتتململ، وقد درست هذه المسألة من كل وجوهها، وراجعت في ذهني مرارًا علمي بدنو أجلي، ومع ذلك لم

obeikan.com

أتمكن من أن أقنع نفسي بأني ميت عما قليل، ليس الذي يهلع في نفسي من الموت هو «الفيلسوف» لأن الفيلسوف لا يصح أن يخاف الموت، بل «الإنسان القديم» هو الذي يخافه، فهذا الإنسان لا شجاعة له، ليذعن، مع أنه يجب أن يذعن لما لابد منه».

نعم.. الإنسان القديم هو الذي يخاف الموت، ويتوهم أنه مؤلم.. ونحن إنما نخاف الموت بهذا الشعور الوراثي القديم.. أما الموت في حقيقته، فليس جديرًا بأن نخافه هذا الخوف العظيم.

ونحب أن نتكلم عن الخوف أولًا وعن منشئه.. وللقدماء والمحدثين في ذلك آراء كثيرة، وهو على كل حال يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور. ولكن لماذا نتوقع المكروه وننتظر المحذور، وهما من الأمور الممكنة التي تحدث أو لا تحدث؟

والجواب عن ذلك، أن الإنسان وجد في هذه الحياة وهو محوط بكثير من القوى الطبيعية التي تغالبه، وأنواع الحيوان التي تنازعه البقاء. وكان لابد له - وقد فطر على حب الحياة كما فطر عليها كل حي - أن يكافح هذه القوى المختلفة، فإما غلبته وإما تغلب عليها، وقد ذهب ضحية هذا الكفاح بين الطبيعة والإنسان، وبين الإنسان والحيوان، أرواح إنسانية كثيرة تعذبت وتألمت، وفقدت هذه الحياة التي كانت تحرص عليها وتكافح من أجل الاحتفاظ بها.

ورأى الإنسان ما حلَّ بأخيه الإنسان من هذه الحوادث المحزنة، وذاك الصراع المؤلم.. وشاهد قبل تحضره، كيف تنتهز الوحوش غفلته في الظلام وفي الأماكن الموحشة فتفترسه، أو تخطف أطفاله، أو تغتصب مادة حياته، فنشأ عنده الحذر منها، وأصبح يخشى أن يقع فريسة لها، وصار يتجنب السير في الظلام وفي الأماكن الخالية، وجعل يحذر أطفاله من السير ليلًا أو في تلك الأماكن حتى لا يعرِّضوا أنفسهم لافتراس الوحوش، وروى لهم القصص المخيفة ليزيد في تحذيرهم، فرسخ هذا الحذر في نفوسهم، وانتقل إلينا بواسطة العقل الباطن.. فورثناه نحن فيما ورثناه من طباعهم وأخلاقهم، وأصبحنا على الرغم من وسائل الأمن المختلفة نخشى الانفراد حتى في الأماكن المعمورة، ونستوحش من الظلام حتى في غرفتنا الخاصة، وتهز أعصابنا الخيالات القديمة التي كان يتخيلها أسلافنا، والتي انتقلت إلينا في عقلنا الباطن، وهي في الحقيقة أوهام باطلة لا يحسن التسليم بها.

ولكن بقيت هناك أمور يخافها الإنسان غير الظلام، والأماكن الموحشة، كفوات

مطمع من المطامع أو ضياع شيء عزيز عليه، وأساس ذلك الخوف التشاؤم والأنانية وحب النفس وكثرة التفكير في الإخفاق وعواقبه، ولو أن الإنسان استشعر دائمًا التفاؤل، وشغل نفسه بالأمل القوي والتفكير الصالح، واطمأن إلى أنه ناجح في كل عمل يزاوله وفي كل مشروع يقدم عليه، إذن لما وجد سببًا للخوف من فوات مطمع أو ضياع شيء منه.

على أن كل أمر يخافه الإنسان أما أن يقع أو لا يقع.. أي أن وقوعه وعدم وقوعه من الممكنات التي تتساوى، فلماذا يرجِّح وقوع ما يخافه على عدم وقوعه؟.. وقد أحسن من قال:

وقـل للفؤاد أن تـرى بـك نـزوة ... من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

❋❋❋

ولكن هناك أمرًا يخافه الإنسان، وهو لابد واقع - وهو الموت - فلماذا يخاف الإنسان الموت؟.. وكيف نعالج هذا الخوف؟

يخاف الإنسان الموت لأنه يجهل الموت، ولا يدري ما هو على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن للموت ألمًا شديدًا غير ألم الأمراض التي قد تتقدمه وتؤدي إليه،أو لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات.

والسببان الأولان عامان عند جميع الناس، فكل إنسان يخاف الموت لأنه يجهل حقيقته ويجهل مصيره، ويظن - بل يعتقد - أن للموت ألمًا شديدًا غير ألم الأمراض التي تتغلب على الجسم وتفقده الحياة. أما السببان الآخران فقد يكونان عند بعض الناس دون بعضهم الآخر.. ففريق منهم يؤمن بالعقوبة ويخافها، ويخاف الموت لأجلها.. وفريق منهم لا يؤمن بها، ولا يعتقد أنه سيعاقب بعد الموت، كالدهريين والملحدين مثلًا، ولكنهم يخافون الموت أيضًا، وكذلك الأسف على المال والمقتنيات ليس عند جميع الناس.. فقد يموت الشخص، ولا مال عنده ولا ثمين لديه يقتنيه، ومع ذلك فهو يخاف الموت أيضًا ولو كان معذبًا بالحياة، ولو لم يكن عنده شيء يأسف على فراقه[1].

---

(1) استعنا في بعض ذلك برسالة عن الخوف من الموت للفيلسوف «ابن مسكويه» أحد فلاسفة القرن الرابع الهجري.

obeikan.com

• الموت لا يخيف:

والخوف لهذه الأسباب كلها لا يصح الاقتناع به.. وينبغي ألا يقع الإنسان فريسته، لأن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها - أي الأعضاء التي تسمى في مجموعها بدنًا - كما يترك الصانع استعمال آلاته، والنفس جوهر غير جسماني، وهي ليست قابلة للفساد. ويؤيد هذا الرأي من الوجهة العلمية في العصر الحديث علماء الأرواح.. فقد برهنوا على بقاء الروح بعد مفارقة الجسم، وإمكان مخاطبتها بتجارب واقعة وحوادث مشاهدة يغلب على الظن تصديقها، بل قد تضطر الإنسان إلى تصديقها في بعض الأحيان، وقد أصبحت عند هؤلاء العلماء من الحقائق الثابتة التي لا جدال فيها.

فإذا كنت تخاف الموت لأنك تجهله وعلمت هذه الحقيقة، هان عليك الموت.. واطمأننت إلى هذا المصير الذي تتخلص الروح فيه من أدرانها الجسمانية ومتاعبها الدنيوية.

أما إذا كنت تخاف الموت لأنك تعتقد أنه يؤلم ألمًا شديدًا، غير آلام الأمراض التي تتقدم الموت، فهذا اعتقاد لا أساس له.. لأن الألم يكون للجسم الحي المحتفظ بأثر الروح، والجسم إنما يحس ويشعر عن طريق هذا الروح.. فإذا صدم، أو جرح، أو حدث له حرق، أو مرض، تألم لأن إحساسه موجود بوجود روحه، أما الموت فإنه زوال لهذا الإحساس، وفراق لما كان يحس به ويتألم.. فالمحتضر لا يشعر بالألم عند مفارقة الروح، ويؤيد ذلك استسلامه وهدوءه ساعة خروج الروح، فلا ترى له حركة، ولا تسمع له تأوهًا ولا أنينًا، كما كنت تشاهد ذلك منه قبل سكرات الموت. ولهذا فإن أي مرض من الأمراض - مهما قل شأنه - يشعر الإنسان بألمه لبقاء روحه في الجسم، وهو جدير بأن يخافه الإنسان لا أن يخاف من الموت.

أما من يخاف الموت لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعده، فليس في الحقيقة يخاف الموت وإنما يخاف العقوبة، ومن اعترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات، فهو خائف من ذنوبه لا من الموت، ومن خاف العقوبة فالواجب عليه أن يحذر الذنوب.

أما من زعم أنه يخاف الموت، حزنًا وإشفاقًا على من يخلفهم من أهله وولده وماله، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها.. فهذا الذي يحزن هذا الحزن،

ويأسف هذا الأسف، إنما هو أناني محب لذاته.. وإذا تذكر أن في الحياة إلى جانب هذه اللذة والمتاع آلامًا مختلفة ومفاجآت متنوعة، ومتاعب تنغص عليه هذه الملاذ، ثم إذا تذكر أن كثيرًا ممن سعدوا في هذه الحياة بأموالهم وأولادهم قد فارقوا هذه الحياة، وإن من بقي منهم لابد له من هذا المصير، وإن جميع من في الأرض في تلك النهاية سواء.. نقول إذا تذكر ذلك كله هان عليه الموت، واحتقر هذه الحياة، وثنى من عنان حرصه وطمعه.

وبعد.. فهل تجد بعد ذلك سببًا وجيهًا للخوف من الموت؟.. وهل تظن أنه مؤلم حقًا؟

إنك إذا استعرضت ما أسلفناه وآمنت به، فلست تجد في الموت ما يخيف، ولست ترى ما كان عندك من الخوف إلا وهمًا باطلًا، وقاتل الله الوهم، فإنه يمثل الضعيف قويًا، والقريب بعيدًا، والمأمن مخافة..

قال جوته الشاعر الألماني، وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير: «زيدوني نورًا.. زيدوني نورًا».

الحب والموت

لعل الحب والموت يجتمعان في أن كلًا منهما لا يُعرف كنهه، وإنهما سر من أسرار الكون.. وإذا حاول أحد أن يعرف الموت، فغاية ما يستطيعه أن يعرفه بأعراضه إن كانت له أعراض، أو بأسبابه إن كانت له على الدوام أسباب. وكذلك الحب، فلم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التي تجرد العاشق من شعوره بشخصيته، وتهون عليه في سبيل هواه كل شيء حتى الموت، بل قد يستعذب الموت ويطلبه، أملًا في النجاة، أو رغبة في أن يجمع الله بينه وبين من يحب في عالم الأرواح، إذا كان قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة في عالم الأجسام.

وقد عرَّف بعضهم الحب بأنه مرض وسواسي، يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور، وعرفه بعضهم بأنه طمع يتولد في القلب، ويتحرك وينمو، ثم يزدهر، وتجتمع إليه الأنانية والحرص.. وكلما قوي، ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع حتى يؤدي به إلى الغم والقلق، فيكون احتراق الدم عند ذلك، باستحالته إلى السوداء.. ومن غلبته السوداء فسد فكره، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون، وتمني ما لا يقع، والهيام في وادي الخيال والأحلام.

وإذا أصاب العاشق اليأس فقد يقتل نفسه، أو يموت غمًا، وقد يرى محبوبه فجأة أو بعد غياب طويل فيتأثر ويموت فرحًا، أو يشهق شهقة تصعد فيها روحه، أو يبلغه أنه قد مات، فيصعق بنعيه ويموت حزنًا. أو يهجره المحبوب، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه، ويميته بأوهى الأمراض، بل قد يمتزج العاشقان امتزاجًا روحيًا، فيصبحان شيئًا واحدًا إذا شطر النصف مات النصف الآخر، كما قال العباس بن الأحنف:

خلط الله بروحي روحها فهما في جسدي شيء أحد
بهما يحيا إذا ما اصطحبا فإذا ما افترقا مات الجسد

ذكروا أن فتاة عربية هويت شابًا.. فكانت تبذل له الأموال، وهامت به هيامًا شديدًا، حتى لم تستطع فراقه، فكلفت مصورًا رسم صورته، ففعل، فجعلت تجلس إلى الصورة كلما غاب عنها الشاب، وتحادثها وتأنس بها. ثم مات الشاب ففجعت بموته، ورجعت إلى الصورة، فما زالت تقبلها وتبكي إلى أن أمست فباتت إلى جانبها، فلما كان الصباح دخلوا عليها فوجدوها ميتة ويدها ممدودة على الجدار، وقد كتبت عليه:

يا موت دونك روحي بعد سيدها خذها إليك فقد أودت بما فيها
أسلمت روحي للرحمن مسلمة ومت موت حبيب كان يعصيها
لعلها في جنان الخلد يجمعها يوم الحساب ويوم البعث باريها

وقد روى فيلسوف الأندلس علي بن حزم، أن جارية كانت لبعض الرؤساء، فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها.. فجزعت لذلك جزعًا شديدًا، وما فارقها الأسف والنحول، ولا بان عن عينيها الدمع حتى ماتت بعد فراقها له ببضعة أشهر. قال: وقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولًا ورقة، فقالت لها: «أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان»، فتنفست الصعداء، وقالت: «والله لا نسيته أبدًا، وإن كان جفاني بلا سبب».. وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرًا.

قال: «وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله، وكان متزوجًا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر، وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكان الزوجان في حد الصبا وتمكن

سلطانه، تغضب كلًا منهما الكلمة التي لا قدر لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام. وكانت قد شفها حبه، وأضناها الوجد فيه، حتى توفى أخي وهو ابن اثنين وعشرين عامًا، فما انفكت منذ توفى عن الحزن العظيم، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي مات فيه، ولقد أخبرتني عنها أمها، وجميع جواريها، إنها كانت تقول بعده: «ما يقوى صبري، ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا تيقني ألا يضمه وامرأة مضجع أبدًا، فقد أمنت هذا الذي ما كنت أتخوف غيره، وأعظم آمالي اليوم اللحاق به».

وطلب المتوكل مؤدبًا لولده، فذكروا له الجاحظ، فلما دخل عليه استقبح صورته، وأمر له بعطاء وصرفه، فلما خرج لقى في طريقه محمد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان مسافرًا إلى مدينة السلام، فدعاه إلى الانحدار معه في «حراقته»، وكانت دجلة في غاية الزيادة والمد، فدعا محمد بالغداء، ثم أمر بالنبيذ والغناء، ومد الستارة بينهما وبين جواريه، فغنت جارية هذين البيتين:

كل يوم قطيعة وعتاب ... ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا ... دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت، فأمر الطنبور، فغنت:

وا رحمة للعاشقينا ... ما إن أرى لهمو معينا
كم يعذلون ويهجرو ... ن ويبعدون فيصبرونا
وتراهمو مما بهم ... بين البرية خاضعينا
يتعذبون ويظهرو ... ن تجلدًا للعاشقينا

فقالت لها العوادة: يا فاجرة، ماذا يصنعون؟

قالت: يصنعون هكذا.. قال الجاحظ: «وضربت بيديها في الستارة فهتكتها، وبدرت علينا كالقمر، ثم ألقت بنفسها في الماء، وكان على رأس محمد بن إسحق غلام رومي الجنس يضاهيها حسنًا وجمالًا، وبيده مذبة، فلما رأى ما صنعت الجارية، ألقى المذبة من يده، وهرع إلى الموضع الذي طرحت نفسها فيه قائلًا:

لا خير بعدك في البقاء ... والموت ستر العاشقينا

وألقى بنفسه في أثرها، فأدار الملاح «الحراقة»، فإذا بهما يطفوان متعانقين، ثم غاصا، فلم يُرَ أحد منهما.. فاستعظم محمد ذلك وهاله الأمر، وقال: يا عمرو، لتحدثني حديثًا تسليني به عن فعل هذين، وإلا ألحقتك بهما، فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم، فدخل عليه فتى، فقال له: «إن رأي أمير المؤمنين تخرج جاريته فلانة لتغني ثلاثة أصوات».

فاغتاظ يزيد وقال له: «ما الذي حملك على هذا؟»، قال: «الثقة بحلمك والاتكال على عفوك»، فأذن له، ثم أمر بحضور الجارية، فقال لها الفتى غنّي:

أفاطم مهلًا بعض هـذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجري فأجملي

فغنت، فقال يزيد: قل الثاني، فقال لها غني:

تـألـق الـبـرق نجديًا فقلت له يا برق إني بروحي عنك مشغول

فغنته الجارية، فقال يزيد: قل الثالث، فقال: «تأمر لي برطل من شراب» فأمر له به، فلما شربه أشار إليها بأبيات، فغنتها، ثم نهض فوثب على قبة ليزيد، فرمى بنفسه على دماغه، فمات، فقال يزيد: «إنا لله وإنا إليه راجعون، أكان الأحمق يظن أني أخرج إليه جاريتي تغنيه وأردها إلى ملكي. يا غلمان خذوا بيدها، واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه، فانطلقوا بها إلى أهله، فلما دخلت الدار رأت حفرة فجذبت نفسها من بين أيديهم، وقالت:

مـن مـات عشقًا فليمت هكذا لا خـيـر فـي عـشـق بـلا مـوت

وألقت نفسها في الحفرة على دماغها فماتت.

❋❋❋

ومن الطرائف الفكهة التي حكاها بشار بن برد عن الحب والموت، إن حمارًا له مات، فرآه ذات ليلة في المنام، فقال له بشار: «ويلك مالك مت؟!».

فقال الحمار: «لأنك ركبتني يوم كذا، فمررنا بباب الأصبهاني، فرأيت أتانًا جميلة عند بابه، فعشقتها، ومت..».

قال بشار: وأنشدني حماري ما يأتي:

سـيـدي شـمـت أتـانًـا عـنـد بـاب الأصـبـهـانـي

تيمتني يوم رحنا ... بثناياها الحسان

وبغنج ودلال ... سل جسمي وبراني

ولها خد أسيل ... مثل خد الشيفراني

فبها مت ولو عشـ ... ـت إذن طال هواني

فقال له رجل من القوم: «يا أبا معاذ، ما الشيفراني؟»، قال: «هذا من لغة الحمير، فإذا لقيتم حمارًا فسلوه..».

وهذه القصة الفكاهية التي يزعمها بشار بن برد، وينظم لها شعرًا ينسبه إلى حماره مع ما فيها من تهكم بجنون العشاق، تعود إلى ما يحدث بين الحيوان من غم الفراق كما يحدث بين بني الإنسان، والمعروف أن بعض الحيوان إذا مات قرينها أو ماتت قرينته اعتزل الطعام وأسلم نفسه للجوع حتى يموت، فما بالك بالإنسان إذا استولى عليه الحب، وتحكم فيه الهيام.

وقصة روميو وجوليت، وقصة مجنون ليلى، وغيرهما، ترجع إلى حقيقة لا شك فيها.. وهي أن الحب يفعل في النفس وفي الجسم ما يفعله المرض. وإذا صح أنه في كنهه مرض من الأمراض، فلا عجب أن يموت به العشاق كما يموت الناس بسائر الأمراض، وأنت ترى رجلًا يموت بالسكتة القلبية لحزن، أو غضب، أو ضعف، فليس عجيبًا أن يموت عاشق لموت معشوقه، أو لخيانته وهجرانه، أو لشدة وجده بمن يحب، فتصبح روحه معلقة في خيط رفيع لا تقوى في محنتها على أبسط الأشياء.

وليس في الدنيا أقرب إلى الموت من العاشق في فرحه وأشجانه، وفي ألمه وسلوانه، وفي ضعفه وقوته، وفي جبنه وإقدامه، وفي أنانيته وتضحيته، وفي استهانته بالحياة وحبه لها، ما دام يعلم أن في الموت رضاء محبوبه، أو قربه منه، أو فوزه بوصاله، فهو مؤثر له لأنه يراه شفاء لنفسه، ودواء لقلبه، ونجاة من جحيم الحياة، أو فداء لمن يرجو لها حياة هانئة، وحظًا سعيدًا لا شقاء فيه ولا آلام.

طاهر الطناحي

obeikan.com